شوقي خاتم القدماء وطليعة المحدثين

بقلم رئيف خوري

(٢) قديم يجب ان يصان

وحديث يجب ان يتمم

قال لي صاحب : أتراك تقصد الى ذم شوقي أم الى مدحه حين تجعله خاتم القدماء وطليعة المحدثين ؟

قلت له : لم يذهب بي القصد الى ذمّ ولا الى مدح ، وإنما شئت ان اؤكد على اهمية الدور الذي يمثله في تاريخ ادبنا هذا الشاعر الكبير الذي وافقت ذكراه العشرون ايامنا هذه من عامنا هذا . ولكن ما دمت قد سألت فانني يا صاحبي لا اقصد دائماً الى الذمّ حين استعمل لفظ القديم ، ولا اقصد دائماً الى المدح حين استعمل لفظ الجديد ، فما كل قديم بالمرذول ولا كل جديد بالمقبول . ولعلّ شوقي نفسه قد كفانا مشقة الاجتهاد في هذا المعنى حين قال :

والشعر في حيث النفوس تلذّه لا في الجديد ولا القديم العادي

•

لا تحذ حذو عصابة مفتونة يجدون كل قديم شيءٍ منكرا
ولو استطاعوا في المجامع انكروا من مات من آبائهم أو عمرا
من كل ماض في القديم وهدمه وإذا تقدم للبناية قصّرا
واتى الحضارة بالصناعة رثة والعلم نزراً والبيان مثرثراً

وها هنا درس من شوقي للشعراء الألى يطمحون الى التجديد ولكنهم يذهبون في فهم التجديد مذهبا شططاً ، فيعدّونه قطيعة مع القديم بأتمّ معاني القطيعة ، حتى لتراهم يقاطعون شروط بلاغة التعبير بحسب ما تقتضيه عبقرية اللغة في هذا الفن أو ذاك من فنون الأدب . بل انك لتراهم يتصرفون وكأن التعبير عندهم عنصر مهمل لا رأس العناصر الحيوية التي لا قوام إلا بها للأدب . وأي بأسٍ في مثل نضربه في هذا السبيل ؟.. هوذا الشاعر العراقي ، احد الجاهدين في حقل التجديد والواعدين بموسم كريم ، أردت عبد الوهاب البياتي ، يقول في العدد الماضي من «الآداب» ، في قصيدته : «مذكرات رجل مجهول»

أعرفت معنى ان تكون
متسوّلاً ، عريان ، في ارجاء عالمنا الكبير ؟
وذقت معنى اليتم مثلي والضياع ؟
أعرفت معنى ان تكون
لصاً تطارده الظلال
والخوف عبر مقابر الريف الحزين ؟

فهذا ولا ريب يأخذ من الشعر بحظّ أوفر من قوله في استهلال القصيدة نفسها :

انا عامل ادعى سعيد
من الجنوب
أبواي ماتا في طريقهما الى قبر الحسين
عليه — ماتا في طريقهما — السلام
وكان عمري آنذاك
سنتين — ما اقسى الحياة !

فهذا لا يكاد يكون له حظ من الشعر الا المطابقة بين تفاعيله وتفاعيل مجزوء من الكامل . لا يكاد يكون له حظ من الشعر لا لشيء إلا لأنه اسفّ عبارة ، وبالتالي : اضعف من ان يحدث في النفس تلك المجاوبة التي يتطلبها الشعر .

وبالمناسبة — ان من عبقرية اللغة العربية ان عبارتها الشعرية لا تتحمل من النثر ما تتحمله العبارة الشعرية في بعض اللغات الاوروبية التي اتيح لنا ان نعرفها . وان إقحام ادنى تركيب نثري ، او حتى لفظ نثري على الشعر العربي ليبدو مفضوحاً وليضعف من الشعر كما لا يضعف مثله من شعر انكليزي او فرنسي . قال ابن الرومي :

ولو ان الايوان قد كان يسعى جاء سعياً اليك قبل الأذان
ولوافاك كي تمرج فيه غير ان ليس ذاك في الامكان!

فـ « كي » هذه نثرية . وعجز البيت كله أحرى بان يعد في النثر الركيك .

بقي الادعاء اننا نريد تقريب الشعر من فهم الشعب . واذاً

فماذا ؟ هل ينتج من ذلك ان نقول كما قال احد شعراء «الآداب» ممن يخلبني احياناً بعض ومضاتهم الشعرية ، هل ينتج من ذلك ان نقول :

وشربت شاياً في الطريق !

واذاً ، فبالله لمَ اخترع الناس النثر ، بل « النثر الفاتوري » نسبة الى فاتورة التاجر ؟

حقاً ان تقريب الشعر من فهم الشعب ضروري ، ولكن بابقاء الشعر شعراً ، وبرفع مستوى التذوق الشعري الفني عند الشعب .

ولا يبقى الشعر شعراً الا ببقاء عبارته الشعرية . ومن يشك في ان العبارة الشعرية هذه لا تستقيم للشاعر العصري الا بان يلقح بلقاح الصفوة من القـــديم ؟ ففي القديم نلقى العبارة الشعرية على اروعها صياغة واداء . ومن القديم هذا تعلم شوقي العبـارة الشعرية واتقنها . واكبر الظن انه انما تفرغ لاتقانها ابان الحرب الكونية الاولى يوم نفي من مصر فاختار المقام في الاندلس (اسبانيا) . ولقد بلغ شوقي من اتقان العبارة الشعرية العربية حدّ الروعة والابداع ، فكان اشرق شعراء العصر ديباجة وانصعهم بياناً واقدرهم على اللفظ الغني بالايحاء .

قال من قصيدة في مناجاة ابي الهول :

إلام ركوبك متن الرمال ... لطيّ الاصيل وجوب السحر
تسافر منتقلاً في القرون ... فأيان تلقي غبـــار السفر ؟
فيالدة الدهر لا الدهر شبّ ... ولا أنت جاوزت حد الصغر !

وقال مخاطباً نابليون :

قم الى الاهرام واخشع واطرح ... خيلة الصيد وزهو الفاتحـــين
وتمهـــل انمـــا تمشي الى ... حرم الدهر ومحراب القرون !

وقال ، يريد : ان الخلاف في الرأي يجب ان لا يجرّ الى التحاقد :

في الرأي تضطغن العقول ... وليس تضطغن الصدور [1]

فهل ثمّ حاجة الى التنويه بما يحفل به هذا الشعر من جمال صياغة وفخامـة وقع ولفظ يطلق الحركة في العقل والشعور بقوة ايحائه ، ولاسيما قوله : « تسافر منتقلاً في القرون » و« ايان تلقي غبار السفر ! » و « حرم الدهر » و « محراب القرون » و « تضطغن العقول » ؟

(١) زدد شوقي هذا المعنى في رواية « مجنون ليلى » حيث قال: اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية ! ومقابلة هذا البيت الى البيت المثبت في اعلاه شاهد ممتاز على اثر قوة العبارة الشعرية وضعفها في قوة الشعر وضعفه .

لكن ربما تذرّع متذرّع بان شوقي انما استطاع الحفاظ على هـذا المستوى الرفيع من العبارة الشعرية لأنه لم يتمرس من المعاني الا بما كان عربياً تقليدياً او وثيق الاواصر بالمعـــاني العربية التقليدية ، فشوقي لم يتطرق الى المعاني التي هي ، حقاً ، جديدة ، معاني التحرر الوطني والاجتماعي .

وليس ثمة ريب في ان شوقي لم يردد معاني التحرر الوطني والاجتماعي مملاة عليه املاءً حتى بالفاظها من قبل زمرة حزبيـة منغلقة ، ولا كان له ان يفعل ذلك بوصفه شاعراً كبيراً ، فان نفس الشاعر لا تتحمل الاملاء والتلقين لا في المعاني ولا الالفاظ ، وانما تتفاعل مع مجتمعها على استقلال في الفكر والشعور . غير ان القول بان شوقي لم يتطرق الى معاني التحرر الوطني والاجتماعي في كل ما ابدع من اثر ولا سيما بعد عودته من المنفى تجنٍ على الشاعر لا تغتفره الحقيقة . والمهم هنا ان نثبت انه انما تطرق الى تلك المعاني وجلاها مع الحفاظ على المستوى العباري الرفيع الذي عُرف به ...

قال في معنى ان الحرية لا تنزع من المستعمرين الا بالثورة الدامية . (واحسب هذا من المعـــاني الجديدة التي تتصل بالتحرر الوطني) :

وللمستعمرين وان ألانوا ... قلوب كالحجـــارة لا ترق
دم الثوار تعرفـــه فرنسا ... وتعـــلم انه نور وحـــق
وحررت الشعوب على قناها ... فكيف على قناها تسترق ؟

وللاوطان في دم كل حر ... يد سلفت ودين مستحق
ولا يبني الممالك كالضحـايا ... ولا يدني الحقوق ولا يحق
ففي القتلى لاجيـــال حياة ... وفي الأسرى فدىً لهم وعتق
وللحريـــة الحمراء باب ... بكل يدٍ مضرجة يدق ! [1]

وقال في معنى ان اضطهـــاد الشعوب وتشريد احرارها وتقتيل ابطالها خليق بان يزيدها حمية وتضحية في سبيل حريتها (واحسب هذا ايضـاً من المعاني الجديدة ذات الصلة الوثيقة بالتحرر الوطني) :

ركزوا رفاتك في الرمال لواء ... يستنهض الوادي صباح مساء
يا ويحهم نصبوا مناراً من دم ... يوحي الى جيل الغد البغضاء
جرح يصيح على المدى وضحية ... تتلمس الحريـــة الحمراء ! [2]

وقال يقبح طغيان المال والسباق في التسلح ، والنفاق باسم

(١) من قصيدته في الثورة السورية .
(٢) من قصيدته في عمر المختار بطل طرابلس الغرب الذي اعدمه الطليان

السلم والاسراع الى غزو الشعوب، وحرمان الفقير لقمته للانفاق على جيوش العدوان ، (واحسب هذا كله من المعاني الجديدة التي تدور على محور من التحرر الاجتماعي) :

وحور قول الناس حر وعبد الى قولهم مستأجر وأجير

(وفي هذا البيت ملخص معجب لحقيقة الانتقال من عصر الرفيق الى عصر رأس المال)

واضحى نفوذ المال لا أمر في الورى ولا رأي إلا ما يرى ويشير
وعصر بنوه في السلاح وحرصه على السلم يجري ذكرها ويدير
ومن عجب في ظلها وهو وارف يصادف شعباً آمناً فيغير
ويأخذ من قوت الفقير وكسبه ليؤوي جيوشاً كالحصى ويمير
ومذ ضاق عنه البر والبحر مذهبا تعلق اسباب السما ويطير

وقال يدعو الى تحرير المرأة (واحسب هذا ايضاً من معاني التحرر الاجتماعي) :

قل للرجال طغى الأسير طير الحجال متى يطير ؟
اوهى جناحيه الحديد وحز ساقيه الحرير
ان السماء جديرة بالطير وهو بها جدير
حريـة خلق الاناث لها كما خلق الذكور !

وقال في توجيه الناخبين الى انتقاء نواب تنبض عروقهم بالحياة لا نواب يرين عليهم الجمود (واحسب هذا كذلك من معاني التحرر) :

دار النيابة قد صفت ارائكها لاتجلسوا فوقها الاحجار والخشبا

فهل رأينا شوقي في كل هذا الشعر الذي تطرق فيه الى المعاني الجديدة يأذن لعبارته ان ينالها إسفاف أو ان يقتحمها ما ليس من العبارة الشعرية بسبب ؟

لا لعمري !

وهذا هو الجانب المحمود من اثر القديم في شوقي . ذلك هو القديم الذي لا نحب ان يختتم بشوقي ، ولا بغير شوقي ، لاننا لانريده ان يختتم ، حرصاً على الشعر الذي لا قوام له إلا بعبارته !

على ان شعر شوقي لم يخل من آثار مذمومة علقت به من القديم ، وأكثر هذه الآثار راجع الى الطور الاول من حياته الشعرية في بلاط الخديو عباس حلمي . فتراه يتكسب بالمدح ويسلك فيه سبيل المبالغات المضحكة ، كقوله في عباس حلمي :

ومذ شام هذا البدر فيك رجاحة عليه بميزان البها إذ تأملك
هوت كفة الميزان فيك الى الثرى وخفت به الاخرى فعلق بالفلك !

أو يستعمل الاسلوب التقليدي ، فيستهل بالغزل حيث لا مقام للغزل ، ويتنقل الى الموضوع ببيت من التخلص يجتهد في ان يجعله بارعاً ، ولكنه في الواقع يسلّي القارىء باكثر مما يحرك اعجابه ، كقوله لمناسبة اطلاق نفر من الشباب سجنوا في الحركة الوطنية المصرية ايام سعد زغلول :

لو كنت سعداً مطلق السجناء لم تطلق لساحر طرفها مصفوداً

فقد افتتح القصيدة بالغزل ، فوصف ما لعروس شعره من لحظ ساحر آسر ، ثم جعل الشباب يحمدون الله على انهم لم يكونوا سجناء ذلك اللحظ ، وإلا استحال فك عقالهم ! وهكذا انتقل الى الموضوع !

ولشوقي كثير من المعاني والمفاهيم القديمة ، ولا سيما في شعره عصر البلاط . فالطاغية عبد الحميد عنده خليفة يُمدح ، ولا تسل عما يشع به اسمه من انوار :

واسم الخليفة في الجهات منوّرٌ تبدو السبيل به ويهدى السارِ

والمرأة مثلها مثل الطائر من كنار أو بلبل ، جعل للحبس في قفص وقاية له وإلا ادركته مخالب النسور فمزقته ، فهو « ابن رأي فيه للطبيعة غير مبدّل » !

صداحُ يا ملك الكنار ويا امير البلبل
انت ابن رأي للطبيعة فيك غير مبدّل
ابداً مروع بالاسار مهدّد بالمقتل
ان طرت عن كنفي وقعت على النسور الجهّل

فهذا كله في شوقي من اثر القديم الذي نريده ان يختتم فلا ينهج نهجه احدٌ من ناشئة شعراء العصر .

يبقى شوقي طليعة المحدثين . والحق أنه قد اتجه الى ان يكون طليعة للمحدثين في عهد باكر من نشأته الأدبية يوم سافر في بعثة الى فرنسا محصلاً للعلم . فثمة تنبه لحلو الشعر العربي من المسرحيات ، وثمة تنبه لندرة الشعر القصصي العربي ولا سيما المطولات التي تقص وقائع التاريخ عموماً والتاريخ القومي خصوصاً .

الا انه ما عتم ان عاد الى مصر ولحق فيها بالمعية الخديوية فشغله البلاط وضيق عليه المجال في ان يمثل دور الطليعة للمحدثين والجأه الى مثل هذا الشعر التقليدي :

شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللقب
لو مدحتكم زمني لم اقم بما يجب !

حتى اذا نشبت الحرب الكونية الأولى ، وكان ما كان من خلع عباس حلمي واقامة شوقي منفياً بالاندلس ، ثم عودته بعد

---

(١) من قصيدته في رثاء تولوستوي .

الحرب الى مصر ، انقطعت صلته بالبلاط وانطلق المدى امامه ليكون طليعة المحدثين وليجـــدد في الشعر العربي مـــا وسعه التجديد .

وكان طبيعيـاً ان يصبح شوقي في خارج البلاط أدنى الى تحسس ذلك الصراع الذي ما برح يعنف ويعصف بين الاستعمار (الحكم الاجنبي أياً كان) والوطنية الشابة في اوطان الشرق العربي قاطبة . ومن ثم طفق شوقي يرفع صوته الحار ، القوي النبرات ،وهو يسير في ركب الوطنيةالشابة في الشرق العربي ، السائرة تحت لواء من الاستقلال والتحرر من كل استعمار !

كانشعري الغناء فيفرح الشر ق وكان العزاء في احزانه !

ولقد اثبتنا فيما تقدم من هذا المقال طائفة من شعره الرائع المتصل بالتحرر الوطني ، كما اثبتنا له طائفة منالشعر الجميل المتصل بالتحرر الاجتماعي ، وفي هذا كان شوقي طليعة المحدثين ، الا ان شعره في التحرر الاجتماعي اضيق افقـاً وانطلاقاً من شعره في التحرر الوطني . فنظراته في التحرر الاجتماعي تفتقر على قوتها وصحتها احياناً الى توسيع واعمـاق بما يجيب عن المشاكل التي احدثها التطور الاجتماعي في المرحلة الاخيرة من العصر . لقـد نشأ شوقي نشأة محافظة ، فلما بدأ يحسّ كما احس كثير من مفكري عصره بان التحرر الوطني لا يستقيم الا اذا شفع بالتحرر الاجتماعي ، لبث متردد الخطى في مدى التجديد الذي يصح ان يدخل على نظام المجتمع الموروث . ولعل اقرب قول له الى تصوير مذهبه في هذا الموضوع بيته المشهور :

ومع المجد بالاناة سلامة ومع المجد بالجماح عثار

فهو معتدل . واذا عرض له ذكر الاشتراكيين لم ينكرهم وجعل النبي محمداً إمامهم « لو لا دعاوى القوم والغلواء » :

الاشتراكيون انت امامهم لولا دعاوى القوم والغلواء

وصحيح جداً ان الرسالة المحمدية ، ككل وثبة تقدميـة عظمى في التاريخ تأخذ بنصيب موفور من الاشتراكية روحاً وعملاً ، كما ان الاشتراكية العصرية تستمد قوة وتأييـــداً من الرسالة المحمدية والوثبات التقدمية في التاريخ ، على انها بحاجة الى حلول جديدة خاصة للقضايا الجديدة الخاصة التي اوجـــدها العصر ...

وكذلك كان شوقي طليعة للمحدثين في فن يعدّ هو رائده ومثبته في الشعر العربي ، اردت نظم المسرحيات ، ومهما يكن في مسرحيات شوقي من قصور في التأليف فانه طوّع فيهـــا القريض العربي لنظم الحوار تطويع سيد ، فلم يدانه احد من قبله ولا بعده في هذا الوجه .

وكذلك كان شوقي طليعة للمحدثين في نظم القصص التاريخي للعظة او للاستنهاض القومي (قصيدته : كبار الحوادث في وادي النيل . وموشحه : صقر قريش) .

واذا كان نظم الخرافات ذات المغزى (الامثال) قديماً في الشعر العربي ، نصادف منه نماذج جميلة عند ابن الهبّارية وغيره ، فان شوقي ولا ريب قد علا بهذا الفن الى اعلى ما بلغ اليه حتى اليوم في الشعر العربي قديمه وحديثه .

وختاماً احب ان اعيد هنا مـــا قلته في شوقي في موضع آخر : هو اغزر شعراء العربية انتاجاً في قديمها وحديثها ، وأجمعهم لاغراض الشعر العربي القديم واشكاله ، والسابق الى كثير من فنون الشعر العربي المستحدثة ، ولا سيما المسرحيـات . وفي ذلك كله اتيح له ان يجيد وان يكن تفاوت حظه من الاجادة . فلو كانت العظمة الادبية بالسعة لـكان هو اعظم شعراء العربية على الاطلاق .

وئيف خوري

عدد القصة القادم

سجل ادبي حافل

صدر حديثاً

قصائد دافئة

مجموعة شعر لأحمد ابو سعد

منشورات دار الاحد - بيروت